



رواية "روح مفقودة" للروائي: حكيم زكي آل ساو
تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار

The novel "A Lost Soul" by the novelist: Hakim Zaki Al Saw
Tragedy of disappointment, fear, dying and Dying

ميّادة أنور الصعيدي

جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم، (السودان)، melesaide@gmail.com

ملخص

اهتم الروائي المعاصر بالجانب النفسي للشخصية؛ كونها تعبر عن تناقضات العصر، وعن هموم أمثالها في الواقع، وتفسر صراعاتهم الفكرية، ومشاعرهم المكبوتة، وما يخفونه من هموم، وما يصارعونه من خيبات؛ لذلك أبدع الروائي المصري: حكيم زكي في محاوره شخصية روايته الموسومة بـ "روح مفقودة"، فكشف عن دواخلها؛ وبزردود أفعالها تجاه مجريات الحياة وتغيّراتها؛ وعالج موضوعات نفسية تتعلق بالصراع، والخوف، والخيبة، ومحاولات المواجهة والهروب؛ ويرجع ذلك كله إلى تلك التزعة الإنسانية الرافضة للظلم ولأشكال التهميش، وهياماً بالعدالة الغائبة.

كلمات مفتاحية: الشخصية، الخيبة، الخوف، الجانب النفسي، الصراع.

Summary:

The contemporary novelist has been concerned with the psychological aspect of the character; It expresses the contradictions of the age, and the concerns of its ilk in reality, and explains their intellectual struggles, their pent-up feelings, the concerns they hide, and the disappointments they struggle with. That is why the Egyptian novelist: Hakim Zaki created a personal dialogue in his novel, which is tagged with "A Lost Soul", so he revealed its innermost parts and justified its reactions towards the course of life and its changes: and treated psychological issues related to conflict, fear, disappointments, and attempts to confront and escape: all of this is due to That human tendency rejecting injustice and forms of marginalization, and their obsession with absent justice.

Keywords: personality, disappointment, fear, psychological aspect, conflict

مقدمة:

إنَّ القارئ للرواية المعاصرة سيلحظ اهتمام مبدعها بالتحليل النفسي ووصف الانفعالات، والإكثار من أحلام اليقظة والحديث الذاتي وتحليل الأحداث؛ وهذا بحد ذاته يجسّد فكرة الرواية ويعطيها أبعاداً متباينة، ويكشف عن وعي مبدعها وإدراكه لمآلات الفترة الحالية. ومن هنا كان لا بدّ من البحث في نموذج من نماذج الرواية المعاصرة؛ للوصول إلى تساؤلات تطرأ على فكر القارئ/ الباحث أثناء تلقّي أحداثها. فما الذي يدفع روائيو العصر من الاهتمام بالجانب السيكلوجي للشخصية؟ وهل لذلك علاقة بإنسان العصر وأحداثه؟ وما هي تداعيات وتجليات هذا الاهتمام في الرواية العربية المعاصرة بشكل عام، وفي رواية "روح مفقودة" للروائي المصري حكيم زكي بشكل خاص؟ لذلك كلّ فقد اقتضت طبيعة البحث في مثل هذا السياق اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة بأدوات النقد الأدبي في مقارنة النصّ الروائي ومعالجة مضمونه؛ لاقتناص أهدافه بغية استكناه ملامحه الرؤيوية؛ لذا فقد كان تناول البنية السردية لرواية "روح مفقودة" من خلال دراسة "تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار" هي الصيغة النقدية الأقرب في اعتقادي - والتي من خلالها يمكن تلمّس تخوم سرده، والاقتراب من شذراته؛ قصد الإلمام ببعض خفايا مكنوناته، واستطلاع أفق البنية العميقة له.

لم تعد الرواية المعاصرة تهتم بالتصوير الخارجي للشخصية بقدر اهتمامها بالكشف عن البناء الداخلي الذي يركز على البعد السيكلوجي، ويبرز التضارب النفسي لها. ويحدّد أنماط السلوك التي تعين الشخصية على التكيف وفقاً للبيئة المحيطة أو المثيرة للمشاعر وردود الأفعال؛ لذلك فإنّ الشخصية من أصعب معاني علم النفس تعقيداً وتركيباً؛ كونها تشمل على الصفات الجسميّة والوجدانيّة والعقليّة التي تحدّد هويّة الفرد وتميّزه عن غيره¹.

الروائي حكيم زكي صاحب فلسفة باطنيّة؛ إذ دأب على الاهتمام برواية الشخصية والبحث في مكنوناتها؛ ففي روايته "روح مفقودة" يحاور الشخصية ويكشف عن دواخلها؛ ويشرح مصيرها وردود انفعالاتها تجاه مجريات الحياة وتغيّراتها؛ ويبدو أنّ الاهتمام بالجانب النفسي للشخصية مرده أنّ تلك الشخصية تنقل مجازاً عن أمثالها في المجتمع وما يبطنونه من صراعات فكرية حادة، ومشاعر مكبوتة، وهموم ومآسي، وما أصابهم من خيبات وإحباطات. يقول: "أجواء حافلة بالمتناقضات.. رصيفها المثقل بمن ينتظرون في زخم من الغضب العاجز عن إبداء التذمر، الأكشاك الخشبية.. باعة المياه الغازية والأطعمة.. واللب والترمس والساعات الرخيصة وكروت الشحن وملابس الأطفال المستعملة.. يهرولون جميعهم إثر القطارات التي يتنبؤون بحركتها.. العربية من الداخل.. كعلبة السردين.. أكوام من اللحم ملقاة عبر الممرات وبين فراغات المقاعد، وحتى دورات المياه

رواية "روح مفقودة" لعصية نصي، آل ساء، تراجيديا الحبيبة والخوف والاحتضار - (المجلد الثاني عشر / العدد الثاني / حزيران 2023

رغم الروائح الكريهة .. أين اللذة في الحياة إذن؟ أين الحياة أصلاً؟². لقد تسَلَّلَ شعور التذمّر والضيق إلى القارئ في المقطع السابق؛ ولقد وظّف الروائي ألفاظاً وتراكيب تدلّ على ذلك، مثل: "حافلة بالمتناقضات، المثقل، زخم من الغضب، العاجز، التذمّر، يهرولون، أكوام من اللحم". وأتبع ذلك بتساؤلاته عن مصدر اللذة في الحياة وتعجّبه من إمكانية حدوثها في خضم كل تلك المشاعر السلبية التي يُمكن رصدها في رواية "روح مفقودة" من خلال مناقشة البنود التالية:

أولاً: "روح مفقودة" رواية الطالعين من الوجد

تعدّ الشخصية إحدى المكونات الحكائيّة التي تشكل بنية النص الروائي لكونها تمثل العنصر الفعال الذي ينجز الأفعال، وتملي اللحظة المركزية المسندة إليها تأليفاً، إذ يعمل الروائي على بنائها بناءً متميّزاً، مجسّداً من خلالها تجليات الحياة الاجتماعيّة، وتعبّر عن المرحلة التاريخيّة التي عايشتها، ويكشف الروائي نظرتها إلى الواقع والعالم.³

يتّجه حكيم زكي في "روح مفقودة" إلى الواقع لتصوير شخصيّاته، فيسلّط الضوؤ على التواحي التي شكّلت فئة الشباب المعاصر خاصّة، إن لم يكن الشباب المثقف المأزوم على وجه التحديد؛ فكثيراً ما يلجأ إلى تصوير تفاعل أو انزواء هؤلاء عن واقعهم، وما يعايشونه من هموم، وما يكابدونه من آلام، ثمّ ينطلق إلى داخل ذواتهم، فيرصد مدى تخبطهم بين ما يؤمنون به وما يحدث على أرض الواقع؛ ممّا يُحدث ضعفاً في نفوسهم؛ فينزلقون في وحل العماء، ويندرجون عنوةً تحت مسعى الشباب المُدجّن. يقول: "رحلة مخاض طويل مع الألم.. حالة عجز.. بصورة تدعو للخوف.. يجلس والحسرة تقطر من وجهه وهو يرمق الشباب، لماذا يخسر حياته في مقابل أشياء لا تستحق العناء.. ينبغي إذا أن يهتم بنفسه، وأن يفكر بطريقة جيدة ومختلفة، ليكون شعاره فليذهب الجميع إلى الجحيم، من حمل السلاح والأحلام والأمل ابتلعهم الرمال وطواهم النسيان، لم ينالوا شيئاً، لكن الآخرون حصدوا كل شيء، الفرصة متاحة، وربما لن تتكرر فيما بعد. لم لا يستغلها ويعيش ويستمتع بالحياة"⁴. لذلك فإنّ الروائي تعمّد أن يضع الأجواء التي كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر وراء تأزم هؤلاء الشباب نصب أعين القراء، وأشار - غير مرّة - إلى البواعث التي ساهمت في تشكيل شخصيّاته، والدوافع وراء تصرّفاتهم. يقول: "عانيت كثيراً مرارة البعد ونظرات الآخرين المؤلمة، لا شيء أقسى وقعاً على النفس من نظرات تراك في وضع أدنى، الغربة ليست في المكان، الغربة في الناس، الأماكن في نظري تظل محايدة حتى يتدخل فيها الإنسان بنظرياته وأفكاره وعاداته.. لا بد أن تكون ثرياً لتشعر بالسعادة والثقة والقوة، والثراء له أشكال وألوان، ولا بد أن تبني وراءك جداراً قوياً تستند إليه وقت الحاجة، الخوف لا يأتي عبثاً، ولا بد له من بواعث وأسباب وظروف. وأولها الميل عن الصواب"⁵. لقد تجلّى الصراع الداخلي للشخصيّة في

المقطع السابق؛ إذ طغى على البنية السردية في الرواية ككل، ولعلّ مردّ ذلك هو الشّعور المشترك الذي يجمع فئات المجتمع العربيّ بعد أحداثه الأخيرة، لذا يبرز الشّعور بالقلق من المستقبل المبهم، والخوف من مآلات الأحداث، وإقامة المقارنات الدائمة بين بساطة الماضي وصفائه وبين تعقّد الحاضر وإبهامه، علاوة على الشّعور بالعجز تجاه مجريات الأمور؛ كلّ ذلك يشير إلى حالة الوحدة، واللا شيء، وعدم الانسجام، والكبت، والعجز.

لقد رسم حكيم زكي من خلال شخصيّة بطله خارطة ثقافيّة كاملة للمجتمع تبين شكل الثقافة السائدة، المتمثّلة بثقافة الخوف والإحباط والمعاناة. وقد عمل خلال السرد أن يضع تعبيدًا لهذه الثقافة، أي أن يكشف عن مجموعة من القواعد التي حكمت إنتاج هذه الانفعالات، والتي بدت تسود داخل الوطن العربيّ، فأوقف المتلقّين على شكل الوعي السائد فيه من خلال مجموعة من التساؤلات التي ارتبطت ارتباطًا مباشرًا بسلوكيات الشخصيّة.

ثانيًا: الخيبة في الحب لا تختلف عن الخيبة في الوطن

إنّ إحساس بطل رواية "روح مفقودة" بالاختناق والعجز والخذلان؛ يرجع إلى عدم تأقلمه مع الحياة المعاصرة؛ فإرادته مسلوّبة ومكبّلة بالعجز قبالة غطرسة السّاسة والمسؤولين، وتُعدّ الحبيبة وهجرانها. يقول: "لكنك غبت فكرهت بعدك العالم.. لم أعد سعيداً بنفسى ولا بك.. كل شيء يغيب إلّاك، كل شيء يمكن تعويضه إلّاك، أكرر البحث وفي النهاية أرجع خائباً أجزأ ذيال خيبي وإخفاقي.."⁶. ومن خلال المقطع السابق يُمكن التأكيد على أنّ المحبّ أصبح مفرغاً من أي قيمة روحية؛ لذلك كان لا بدّ أن يشعر المتلقّي بزفريات المحبّ اليائسة التي تذوّى بحزنٍ على أنقاض ذكرياته مع الحبيبة. وما هذا التّزوّج الرومانسيّ إلّا صورةً واضحةً ذات إشعاع فاعل، وتأثير فعليّ على روح المحبّ المفعّمة بالخيبيات.

وبذا يُمكن منح البطولة لكلّ تلك الخيبيات التي تكبّدها البطل في رواية "روح مفقودة". يقول: "أهات تنسحب.. من داخله فيحدث احتكاكها كدمات وخدوش تخلف وراءها دما قاتما فاسدا، السادة الأتقياء وجرائمهم البشعة الملعومة، ماذا يفعل قط مجروح وجائع في مواجهة سيل من البرودة وقطيع فئران تطالب بروحه في مقابل وعد بالنجاة، من أجل ماذا؟"⁷. وهنا وظّف حكيم زكي الاستعارات من أجل تعميق الأثر في روح بطله، وزيادة التأثير على القارئ والتفاعل مع ما يشعر به البطل؛ فالأهات: تنسحب، وتُحدّث احتكاكًا، وتخلّف وراءها دمًا على سبيل الاستعارة المكنيّة. كما وظّف التّشبيه التمثيليّ؛ بحيث شبّه حاله بقط مجروح جائع لا يقوى على مواجهة كلّ ذلك الخذلان جزاء اختفاء الحبيبة وعدم إحساسها به، وملاحقة ذوي السّلطة والتّفوذ له؛ وكأنّهم قطيع فئران

رواية "روح مفقودة" لصفي زكي، آل ساء، تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار - (المجلد الثاني عشر / العدد الثاني / حزيران 2023)

يحاولون غلبته والنيل منه؛ لكنهم واتفقهم على النيل منه، مقابل قطّ أعزل يشعر بالوحدة والخوف والقهر.

إنّ القارئ لهذه الرواية لن يجد ملامح للشخصية؛ بحيث تصفها وصفًا خارجيًا دقيقًا؛ وإنما سيغرق بذلك البركان النفسي الذي ينفجر في المونولوج الداخلي لها؛ كاشفًا عن كلّ ما يعتلج روحها ويؤرقها، وعماد ذلك كلّ الخيبة والخذلان. ويبدو أنّ الخيبة في الحب كالخيبة في الوطن؛ فكلاهما ملجأ؛ بحيث إن غاب أيّ منهما يشعر بالّجوء والهزيمة والخيبات؛ لذلك فإنّ الشخصية في رواية "روح مفقودة" تعاني من العزلة والهروب والخوف والوحدة والاعتراب النفسي. ومن هنا فلم "تعد للبطل أهمية داخل الرواية إلّا وعيه الاجتماعي ومأساته؛ لذلك استند الروائيون إلى الطّرق النفسية والفلسفية، والحوار الداخلي لتمثيل قمة الاستلاب الذي أضى يعيشه بطل الرواية الجديدة"⁸. يقول: "شهور منتفخة بالعدم، أكاذيب ووعد تنشر مثلما ينتشر الجراد وذباب الصيف، أجسام هلامية يلقيها مد غليظ كي تجتاح بطغيان بالغ القسوة خلايا المدينة المريضة، تهاجمها أرتال اللصوص والقتلة والسفاحين وأهل الفساد وهوس الحالمين وتجار المتعة"⁹.

ثالثًا: واقعٌ مثقلٌ بالخيبات وحافلٌ بالتناقضات

ارتبطت الخيبة بالجانب المأساوي لواقع البلاد إبان ثوراتها وربيعها العربي، يقول جورج لوكاتش إنّ الخيبة هي "قصّة السقوط المحتوم وذوبان الطاقات التي أيقظتها الثورة"¹⁰. إلى جانب إخفاق الإنسان في حياته الاجتماعية واختياراته العاطفية؛ ممّا ولّد صراعًا داخليًا داخل الشخصية الروائية التي اقتصرها حكيم زكي من الواقع لتمثّل كلّ تلك الخيبات. يقول: "تناول صحيفة جليها في الصباح. نفس الأسطوانة القديمة الغبية، ارتفاع الأسعار والبطالة والزحام والديون والعلاقات الخارجية والداخلية وفلسطين واللاجئين، وحكام إسرائيل والفضائح والنصائح، وكلما زادت الأكاذيب زاد الفساد.. نهض مثقلًا بالأسى"¹¹. إنّ بطل رواية "روح مفقودة" يشرح أماله المفقودة، ويصوّر انكساراته المتتالية، ويعدّد خيبات البلاد العربية القاهرة. ولقد أكّد على ذلك غير مرّة من خلال المونولوج الداخلي الذي يعدّ وسيلةً يبرز فيها حكيم زكي أفكار شخصياته وأحاسيسها واضطراباتهما، وهو تكنيك مستخدم في سرد الحكايات؛ بغية "تقديم المحتوى النفسي للشخصية، والعمليات النفسية لديها دون التكلّم بذلك على نحو كليّ أو جزئيّ. وذلك في اللحظة التي توجد فيها هذه العمليات في المستويات المختلفة للانضباط الواعي قبل أن تتشكّل للتعبير عنها بالكلام على نحو مقصود"¹².

ومن خلال المونولوج الداخلي يمكن للمتلقي الكشف عن المزاج النفسي للشخصية وطبيعة تفكيرها، ومعرفة طبيعة الصراع النفسي الذي تعانیه؛ فحوار الشخصية مع نفسها يدفع بالمتلقي

لأن يتخيّل مشاهد متنوّعة مليئة بالتناقضات، وتفتح المجال له باستنباط دلالات وإيماءات توحى بمكنونات المشاهد السردية. ويبدو أنّ هذا النوع من الحوار يعمّق التفكير لدى المتلقّي، ويُفسح مجال رؤيته. يقول: "تحالفات قديمة وأخرى جديدة.. والهرم إرث فرعوني، والكازينوهات حضارة ملاهي، أمهما من عجائب الدنيا؟ الموتى أم الأحياء، السكارى أم العقلاء، الوطنيون أم الخونة؟ من الذي نطق بحكم الإعدام المؤبد والجلد على الفلاحين في دنشواي؟ وماذا حدث له؟ تقوده الأسئلة أحياناً إلى حافة الجنون"¹³.

ومن هنا فقد كشفت بُنية السرد لدى حكيم زكي عن عالمٍ ينهض من أعماق التناقض، وشخصيات تضمّر صراعاً نفسياً؛ ليعبّر عن حاضر ومستقبل يشوبه القلق، وانطباعٍ يشيء بحالة من التردّد والتّيه. ويبدو أنّ توظيف الثنائيات المتضادة: "قديمة وجديدة، الموتى والأحياء، السكارى والعقلاء، الوطنيون والخونة" يشير إلى إحساسه العميق بهواجس الذات المعاصرة، وعن كاتب/ناقد وشاهد على عصر يتميز باللا إنسانية، والعنف، والتّفكّك، وصراع الإنسان مع الزّمان والمكان والسلطة القائمة للحريّات. فأبدع حكاية لها مرتكزاتها الفكرية وخلفيتها الاجتماعية؛ بحيث تنبض بتناقضات الحياة التي تجمع بين هواجس الحُلُم ونبوءة الذات المدركة، وبين بساطة الماضي وضبابية الحاضر.

رابعاً: الاحتفاء بالأسى في ظلّ التسلّط.

لقد كشف حكيم زكي في رواية "روح مفقودة" عن أفكار الشخصية ووعيمها، وألقى الضوء على الجانب النفسي لها. ولعلّ اهتمامه بهذا الجانب. يشيء باستبطانه الواقع المؤثّر على ذوات شخصياته؛ ممّا يكشف تعاطفه معهم في مواجهة الواقع المعيش؛ بحيث جاءت روايته معبرة صادقة زاخرة باللمسات الفنية التي تهزّ مكاناً شعور المتلقّي؛ كونه يعرض الحياة من خلال نفسه المرهفة وذاته الحساسة¹⁴. يقول: "صباح الصقيع أمها الوجع،، جو مشبع بالرغبات.. تخوم مملكته قد صارت معابراً لكل الوافدين بهوية مغشوشة، وسؤاله عنك أضحى مذلتة الكبرى وعاقبته.. وافتقارك يحيله إلى رماد. كيان محطّم يزفّ حتى منتهاه.. حلم قديم ينتصب على أيام تجنح للسقوط رغم تشبّثها بالبقاء"¹⁵. يضمّر المقطع السابق مشاعر الحزن والأسى لبُعده عن محبوبته وبلاده؛ ففقدتهما يحيله إلى رماد، ويجعله محطّماً مغترباً تائهً. ولقد عبّر الروائي عن ذلك بلغة جمالية عميقة تتميز بالتدقّق العاطفي؛ بحيث أضاء بنية السرد.

إنّ حضور التسلّط والقمع للحريّات يفسّر شعور الشخصيات في رواية "روح مفقودة" بالخيبة؛ فوجود الشخصية السلطوية في النصّ سيجعل بقية الشخصيات عاجزة عن الإفصاح عمّا بداخلها؛ ممّا يغيب دورها المؤثّر، وتعدّد السلطة السياسية الصوت المسيطر في الرواية بقوة النفوذ،

رواية "روح مفقودة" لعصية نصي، آل ساء، تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار - (المجلد الثاني عشر / العدد الثاني / حزيران 2023)

فهي الأمر النَّاهي، تهرب أفراد المجتمع؛ فلا زلّة تغفر، ولا صوت يعلو عليها؛ بحيث تنفتن في إلغاء أيّ صوت يحاول تعكير مزاجها. وهي السّلطة التي تفرض القانون، ولها حق الحكم بالموت أو الحياة على كل من يخالفها أو يُعارض سياستها. يقول: "أه من الخيبة والوحدة والضياح والموت تحت عجالات.. الزعيم الواحد.. والإرهاب المحلي بالدعم الحكومي.. وسياسة القطيع. وحيدا صار، عاريا يطوف شوارع البرد والوحدة والفراغ، يشاهد شخصا بلا قلوب ولا رؤوس، والكارثة أنهم يتربعون على مقاعد عالية في حين يفترش الجميع أرضا قدرة. يتنفس الضجر.."¹⁶. هذه المناجاة الدّاخلية تكشف حجم الصّراع النّفسيّ في روح البطل؛ إذ يأبى الخنوع والظلم والدّل، ويتطلّع لأن يحظى بحريّة الرأي، والتّعامل معه ومع أبناء وطنه والإنسانيّة وبالحقوق التي نصّت عليها؛ لذلك كلّ فقد تكاثرت الأضداد في متن الحكاية، وتناسلت التّساؤلات التي تحتاج بالضرورة إلى إجابات عمليّة واقعيّة؛ ممّا يكشف عن مفارقةٍ عجيبة تبرز حجم الهوة بين العدل والظلم، بين الحياة والموت، بين الكرامة والقهر.

ولقد عكس من خلال كثرة تساؤلات البطل إيمانه المتزعزع بالسلطات المسؤولة، وما نتج عنه من تشنّت فكريّ وآمالٍ مقيدة أفقدته معاني الحياة كلّها وسلبته إنسانيّته. يقول: "ولكن أين روحي، أين هي الآن؟ في رأسي، في ظهري، في أطرافي، أين الخلاص اللعين؟ الهجرة إلى بلاد النفط، أو المنفي، أو العزلة، أو.. ما المعقول؟! ذلك وهم تصوره لي شياطين الوقت والجبن والفساد. أن تصبح بلا هوية، وأن تفقد جواز العودة إلى وطنك، صواب أم خطأ؟!"¹⁷.

ولا بدّ أن نعرف أنّ بناء الشّخصيّة الروائيّة يتطلّب مزيجاً من الواقع والخيال، ولو تخلّى الروائيّ عن أحدهما لما وصل إلى حدّ الإقناع والتأثير، إذ يقاس نجاحه بقدرته على إقناع القارئ بأنّ شخصيّاته هي كائنات حيّة تعيش معه في الواقع، وتشاطره آلامه وآماله؛ وقد يُسجّل الروائيّ في فئة المبدعين إذا استطاع أن يجعل قارئ روايته يردّد: «كيف عرف المؤلّف كلّ ذلك عني؟!»، وهذا بحدّ ذاته يتطلّب وعياً عميقاً من الروائيّ للأحداث المحيطة بالقراء من النّواحي كلّها، بالإضافة إلى إدراكه التّام للكيفيّة التي سيقدم بها عمله بحيث يُحدث إقناعاً وإمتاعاً، ويحوّل متلقّي قصصه من قارئ إلى شريك في إعادة إنتاج النّصّ.

وعليه، فإنّ العمل الروائيّ «ليس مجرد أحداثٍ تحرّك الشّخص في اتجاه أفقي من نقطة لتوصلهم إلى نقطة أخرى مُحدّدة تبدو في النهاية وكأنّها حتميّة، كما أنّه ليس مجرد مجموعة من الأحداث المتشابكة التي تفرض على الإنسان سلوكاً معيّناً، بل لا بدّ أن يكون وراء التّفاعل القويّ بين الأحداث والشّخص.. كشفاً لموضوع.. له قيمته، ينطلق من موقف معاش إلى رؤية مستقبلية»¹⁸، هذا الموقف هو الذي يعايشه الروائيّ ويبلوره في عمل فنيّ يصوغ من خلاله وجهة نظره تجاه الحياة المعاصرة بجوانبها كافّة، ويتأتّى ذلك من خلال شخصيّات روايته المُحمّلة بأفكاره وأحاسيسه، وهو

يصوغها وفق طابع مميز عن الأنماط البشرية التقليدية، بحيث تأتي ذات ثراء دلالي، غنيّة في جوانبها النفسية والجسدية، فمن خلال مواصفاتها يعكس القاصّ رؤيته الفنية؛ ومن هنا جاءت شخصيات رواية "روح مفقودة" مبرّرة ومنسجمة مع الواقع المعيش.

خامساً: الصّراع مع الزّمان والمكان

لقد لعب الزّمن دوراً هاماً في إيقاع أحداث الرواية وطبيعة النّسيج اللّغويّ لها، وكذلك في تشابك عناصر العمل السّردى وتضافرها معاً؛ فقد أحدث تنوّع حركة الزمن بين السرعة والبطء تمثيلاً لتناوب حضور الإيقاع الحيويّ النّابض ثمّ التّرتيب الدّاعي إلى الضّجر والملل حسب الحدث والصّراع النّفسي، بيد أنّ الزّمن هو المحرّك الخفيّ لمشاعر البطل وتقلّباته الدّاخلية. يقول: "للأيام وجوه وعادات وغرائب. اليوم خمسة، نفس اليوم الذي نأت فيه روح عنه، فأصبحت الساحة مهيأة لدورة مكتملة الحضور من الهزائم والإخفاقات ومحاورات لعينة ومحاكمات بلا قانون ولا عرف ولا عادة. تجارب الحواة وألعيب السياسة.. الماضي في المتاحف، والمستقبل.. من يعلمه أو يحدده أو حتى يتيقن منه؟! أما الحاضر فهو هنا.. أصوات تعبت في عقله حتى ألقي برأسه.. على كومة من الورق"¹⁹.

إنّ المونولوج الدّخليّ والصّراع النّفسيّ والأحلام والذّكريات تسيطر كلّها على رواية "روح مفقودة"؛ لذا لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تخضع كلّ تلك الدّعايات للتّرتيب الزّمنيّ المنطقيّ، بل منح حكيم زكي للزّمن النّفسيّ أولويّةً ودوراً مؤثّراً. يقول: لذلك تتداخل فصول الرواية؛ بحيث يقع متلقّيها في مفارقةٍ تكمن في تحوّل الزّمن فيها من النّسق التّتابعيّ الخطّيّ (زمن القصّة) إلى الزّمن المُشظّل المعقّد (ترتيب الأحداث) المرتبط ارتباطاً وشيخاً بعمق التّجربة الإنسانيّة التي ترومها الحكاية، ويُجكّئها الروائيّ بحبكٍ فنيّ يتطلّب من المتلقّي جسارَةً فكريّة.

إنّ الروائيّ حينما يُستثار في حاضره (كأن يؤثّر عليه موقف اجتماعيّ أو سياسيّ أو غير ذلك)؛ يلجأ إلى التّوغل في الماضي بفعل الذاكرة. وعلى الرغم من وجود بعض الذّكريات المنسية أو النّائية في مستودع العقل الباطنيّ، إلّا أنّها سرعان ما تقفز لسطح حاضره؛ فتحفّزه للكتابة والتّعبير عن ذلك؛ فكان لا بدّ من البحث عن أشكالٍ جديدةٍ تتبلور فيها سرعة الزّمن وتبدّل الحال، ويرصد من خلالها اضطرابات الشّخصيّة الروائيّة التي تحاكي الشّخصيّة الحقيقيّة، ويُبين من خلال المخطّطات الزّمنيّة مدى فقد هذه الشّخصيّة لكلّ معاني الوحدة والانسجام.

لقد اهتمّ حكيم زكي بالزّمن النّفسيّ، واتّخذ من تتبّع أفكار الشّخصيّة الرئيسيّة ومشاعرها المتقلّبة ومدى تأثير هذا وذاك على استجابة المتلقّي في إبداع مخطّط زمنيّ مواتي لهذا الجهد التّتبّعيّ، ومؤازر لأحداث الرواية وسياقها العام؛ ولأنّ البطل يمقت الحاضر بكلّ ما فيه كان لا بدّ أن يبرز

رواية "روح مفقودة" لحفيظ زكي، آل ساء، تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار - (المجلد الثاني عشر / العدد الثاني / حزيران 2023)

احتفاؤه بالماضي على سطح الحكاية؛ يقول مسترجعاً صوت الذكريات الحميمة التي تربطه بأمه واخته: "صوتها مازال يحنى رغم إيغاله في البعد، بذكرياته الفواحة.. وهي ترقى به إلى درجة الهوس، صوتها البالغ الحضور، والصوت العنديبي يغني، على قد الشوق.. كانت أمه تجلس في مواجهة موقد الطهي، تلك السيدة لم تكن تفكر كثيراً في الحزن.. ولا كيف يحنى، كانت تدرك أن الموت إغفاءة عين، ولكن الحزن من صنع البشر، مبالغت وغادر كطالقة نارية، مدركة بحق لعملية الضحك، فكانت تضحك دائماً.. أنها أمه التي يحما بقدرما يحب صفاء البحر واتساعه. اندفعت عبر أنفهما رائحة الطعام، بسطت يدها فجلسا إلى جوارها، كانا هادئين، في حين عيونهما تحمق في الإناء، وكان البخار يتصاعد في هالات سرعان ما تذوب وتلاشى"²⁰. إن حضور الأم والأخت في سياق الحكاية يبعث الاطمئنان والألفة في نفس البطل، ويشيع الأنس والحنين في روحه. وعليه فإن نزوع الشخصية الروائية إلى عالم الطفولة والبراءة والبساطة، يتيح للمتلقى شيئاً آخر وراء النص، كنه يحمل معنى خفياً موحياً، يكشف عن حجم اليأس في العلاقات الاجتماعية، والشظف العاطفي، والواقع المأساوي، والشعور بالوحشة والاعترا ب النفس الذي يشيع في عصرنا الحالي.

ويُعدّ القلق من الزمن المحرك العام والمعادل الموضوعي لإحساس الشخصية وردود أفعالها في راية "روح مفقودة"، فالقلق "سمة عصر التطور والحضارة، ويبدو معادلاً موضوعياً لهذا التطور، ونتيجة حتمية له، ولهذا كله تعددت التماذج بوصفها التصوير الصادق والموضوعي لإفرازات الحياة المتوترة والصاخبة التي يحياها إنسان هذا العصر"²¹. ويبدو أن اصطدام شخصيات حكيم زكي بالواقع الخارجي مردّه الصدام الداخلي والصراع النفسي المتواصل للشخصية مع ذاتها في مزيج مُعقد من الكبت والحرمان والإحباط والقهر والقلق.

إن الفضاء المكاني في الرواية يؤدي وظيفة من خلال العلاقات الفنية التي ينشأها مع باقي مكونات السرد؛ فإن التحم معها واكتمل بها فإنه سيمنح النسيج الروائي وحدة عضوية متماسكة؛ لذلك فإن الفضاء المكاني يعدّ منبعاً جمالياً يعج بالمعاني المولدة التي تتطلب قارئاً مدرّكاً لمنابعها ومساراتها ومواضع التقائها. ومن هنا فقد أولى حكيم زكي الفضاء المكاني لروايته عناية خاصة؛ بحيث أصبح يمثل لديه ملمحاً أسلوبياً مهماً على المستوى التركيبي والدلالي، فقد جعل المكان (القاهرة) انعكاساً للوعي الجماعي، ومحوراً تدور حوله مشاعر الآخرين سلماً أو إيجاباً، وأكسبه قيمة خاصة بحيث تؤثر في مجمل القيم والمفاهيم الأخلاقية والجمالية المحركة لأفكار المتلقين ومشاعرهم. يقول: "العاصمة دائماً تتبع الحكومة.. القاهرة.. التاريخ والجغرافيا والأكاذيب"²². وقال في موضع آخر: "كأنهم تواطؤوا على الصمت.. لا كلام ولا حركة، فقط الأنفاس والرغبات النائمة داخل الصدور في الوصول إلى نهاية الرحلة بسلام ودون عراك. القاهرة ذلك العالم المخيف،

ليس من الصعب أن تدخلها ولكن من المستحيل أن تخرج منها دون خسائر²³. لا يمكن تجريد الفضاء المكاني (القاهرة) من قيمته ودلالاته كحيز ثقافي واجتماعي وسياسي وآلا سيبقى مجرد أبعاد هندسية لا قيمة لها في السياق الروائي. فالروائي يقوم بتحديد الفضاء الثقافي ومن ثم يضع له إطاراً مكانياً فالأهم ليس نقل الوقائع والأحداث والتعبير عن الأمكنة؛ وإنما ما يهتم به هو الفكرة التي يريد إيصالها للمتلقى. إن صورة مدينة "القاهرة" لا تختلف عن صورة المدن العربية الأخرى التي يشوبها الكثير من البقع الرمادية التي تضرر التشوهات في العلاقات الاجتماعية؛ إذ تشي بالطبقية، والبغضاء، والقهر كأمراض اجتماعية ونفسية منتشرة فيها، وتضح في تركيب البطل الداخلي؛ بحيث سيطرت عليه وأحالتة إلى شخصية عاجزة منكسرة، تضيق بها السبل فتراها تنتظر موتها المؤجل المحتوم بفارغ الصبر. يقول: "بداية قد لا تنتهي، وغياب بلا إياب، وروح تتخطفها الأيدي والبلاد والعباد.. لا يدري أثمة طريق للخلاص.. عيناه في وجهه تبدوان كحفرتين.. وطن منفي.. هل اكتشف مؤخرًا أن الموت نفسه وإن كان حقيقة في حد ذاتها إلا أنه في نهاية الأمر بداية جديدة.. وراح يخطو عبر الشوارع التي استحالت في عينيه أكواما من الجثث وبقع الدماء تلطخ الأرض والجدران وتملأ الأرصفة السوداء، بينما الجدران رغم ذلك لا تخلو من الملصقات والمنشورات والجرافيك بصور الزعماء والعبارات الطافحة بالغضب²⁴". وهنا أضفى الروائي أوصافاً على مربيّات بطله؛ فجعلها تتلون بنفسيته؛ ممّا يوحي بعدم اتزان شخصية البطل الداخلية، فهي متأزّمة غير سوية، متناقضة، لا يفارقها شعور الاغتراب الذاتي، حتّى وهي في أحضان الوطن.

ممّا سبق تبين أنّ: شخصية بطل رواية "روح مفقودة" جاءت منفعلّة أكثر ممّا هي فاعلة، متأزّمة مكبوتةً إلا في مواقف بسيطة إذا ما قيست بالأحداث العامة، فقد دخلت حيز اللا فعل، ومردّد ذلك هو جحيميّة الحياة المعاصرة، وقسوة الحتميات الاجتماعية والتاريخية التي تكسر أحلام الشخصية وطموحاتها؛ ولذلك كثيراً ما نجد أنّ الحلم وهاجس التذكّر يرافق الشخصية في متن الحكاية، وهو ما يؤكّد تدمرها وعدم انسجامها، وارتدادها المستمر إلى الماضي. يقول: "جو خانق ومتعفن.. نكد وبشع، أنت تحتاج إلى هواء جديد ونظيف يمكن أن يزيل عنك غبار الأيام، وملوحة الوحدة، ومرارة الفراق، ولكن ما تنتظره أكثر عفونة وبلادة وعجرفة، وأنت ترى أنه ما من سبيل سوى النوم أو الموت أو دون ذلك "الجنون".. وارتخت أصابعه فراح يتابع السجارة وهي تسقط حتى انتهت إلى الأرض وكان الظلام يلف المكان بغلالة كثيفة، ذلك مدعاة للضيق²⁵".

سادساً: الصراع النفسي لبطل رواية "روح مفقودة".

ويكشف حكيم زكي من خلال الصراع النفسي للشخصية الأزّمة الفكرية التي تشمل تبرّم الشباب المعاصر من سياسات الحكومات وممارسات القائمين عليها، وضيقهم بأحداث الحياة بكلّ

رواية "روح مفقودة" لحكيم زكي، آل ساءو، تراجيديا الخيبة والخوف والاحتضار - (المجلد الثاني عشر / العدد الثاني / حزيران 2023)

جوانبها؛ لذلك فقد أهمل وصف الشخصية الخارجي وأولى أهمية لبواطن الشخصية من خلال حديث النفس والمونولوج الداخلي، فقد يلحظ القارئ تمرد الشخصية على المسار الذي رسم لها. يقول: "حسنًا يا سلاله الجراثيم.. لنا يوم قريب، يأمل في نجاة، في لحظة ليس بعدها لحظة أن ينجو، أن يصير إلى عافية تمكنه من اعتلاء الإمساك بكل المخالب والمؤامرات والمكائد، فقط عليه أن يحلم.. الفئران لا تحرس حقول القمح، ولكنها تخرّبها، تملأ بطونها بحبات السنابل"²⁶. لقد بدا جليًا حجم الصّمت المغموس بالقهر، والذي يضمّر حربيًا متأجّجًا، "ودلالة ذلك هو تواجد نوع من الصدّ، وقدرٍ من الكبت والسلبية والتّردّد، وشيءٍ من الرّغبة المتأجّجة التي يقودها الحلم، وهاجس إعادة البناء والتّغيير حيث تستثمر (الشّخصيّة) كلّ جهودها إلى ذلك اليوم الذي تعلن فيه عن هذا الحلم، وتكشف عن أبعاده..."²⁷.

ختامًا:

من خلال العرض السابق لشخصيّة بطل رواية "روح مفقودة" الهلاميّة الغامضة، تلك الشّخصيّة التي لا تحمل صفات محدّدة؛ بل اعتمدت الطّابع الرّمزي والكنائي الدّال على الإحساس القاهر للشّباب العربيّ إبان الربيع العربيّ في مصر خاصّة، والبلاد العربيّة عامّة؛ تبيّن أن الرّوائي حكيم زكي قدر ركّز على إحساس الشّخصيّة الدّاخلية أكثر من تركيزه على مظهرها الخارجيّ المميّز لها، ممّا يشير إلى ذلك الحسّ الاغترابي الشّامل الذي يشعر به أبناء العصر، فقد اعتمدت روايته على التّحليل النفسي ووصف الانفعالات والإكثار من أحلام اليقظة، والحديث الدّاتي وتحليل الأحداث. كلّ ذلك كشف للمتلقّي أبعادًا فكريّة عميقة داخل وعي الرّوائي؛ ممّا ساعد في تجسيد رؤيته وفكرة الرواية، وإعطائها أبعادًا أخرى، فلا يمكن النّظر لما شعر به بطل رواية "روح مفقودة" على أنّه حالة فريدة وفردية، بل إنّ هذا التنبؤ والاستطلاع في شخصيّة يوحى بأنّها حالة إنسانيّة، هي حصيلة العلاقات داخل المجتمع المصريّ خاصّة، وإحساس الخيبة والخوف السّاكن والظلم القار داخل نفس البطل، أنتج إنسانًا محبّطًا مهشّمًا باغضًا السّاسة والولاة. فكّم من حالة مشابهة لشخصيّة البطل في المجتمع العربيّ؟ فحين توسيع الفضاء الذي نشأت به الشّخصيّة فإننا ليست أمام حالة بحذافيرها، بل يمكن سحب ذلك على الإنسان العربيّ المهزوم.

إنّ الشّخصيّة الفنيّة المرسومة بإتقان داخل الرواية تجعل منها انعكاسًا للذّات الكاتبة، أو المشاركة في صنع القرار ووجهة النّظر، بحيث يظهر جزء منها على السّطح ويختفي الجزء الأكبر منها وراء السّطور، ليعاود الظهور الضمني أثناء عمليّة القراءة والتّلقّي والتّأويل من خلال معرفة القارئ المشارك في العمليّة الإبداعية برمتها.

إنَّ شعور القلق، والخوف، وتلك التَّزعة الإنسانيَّة الرافضة للظَّلم ولأشكال التهميش، ما هي إلَّا هُيامًا بالعدالة الاجتماعيَّة الغائبة، ومحاولة أخيرة لتصحيح مسارات المسؤولية، وصرخة روح من بين آلاف الصرخات والأرواح التي تنادي بحذف الرءاء من الحرب، وحذف نقطة من اليأس، وتبديل موضع الميم باللام في الألم.

إنَّ الباحثة لا تزعم بأنَّها أحاطت بعناصر الرواية الفنيَّة والموضوعيَّة كلّها؛ فتأويلاتها وتفسيراتها تظل متفاوتةً من قارئٍ لآخر، وعليه توصي بضرورة الاهتمام بها وبظواهر الصَّراع وجدليَّاته القائمة، والتَّعامل معها بمنطق خاصٍّ يساعد في التعرّف أكثر على أبعادها.

مراجِعُ البَحْثِ وإِجالاته:

- 1 ينظر: الميلادي، عبد المنعم: الشَّخصيَّة وسماتها، مؤسَّسة الشباب الجامعة_ الاسكندريَّة، 2006م، ص25.
- 2 رواية "روح مفقودة"، ص42.
- 3 ينظر: مرشد، أحمد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله، المؤسَّسة العربيَّة_ بيروت، 2005م، ص33.
- 4 رواية "روح مفقودة"، ص100_101.
- 5 رواية "روح مفقودة"، ص128.
- 6 رواية "روح مفقودة"، ص26.
- 7 رواية "روح مفقودة"، ص102.
- 8 مقيدش، سعيد: بطل الخيبة في الرواية العربيَّة الحديثة "دراسة في روايات نجيب محفوظ الواقعيَّة" "أطروحة دكتوراة"، جامعة جيلالي لباس، سيدي بلعباس_ الجزائر، 2016م، ص13.
- 9 رواية "روح مفقودة"، ص118.
- 10 لوكاتش، جورج: بلزك والواقعيَّة الفرنسيَّة، تر. محمَّد علي اليوسفي، المؤسَّسة العربيَّة للنَّاشرين، 1985م، ص71.
- 11 رواية "روح مفقودة"، ص25.
- 12 همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر. محمود الربيعي، دار المعارف_ القاهرة، 2000م، ص46.
- 13 رواية "روح مفقودة"، ص33.

- 14 ينظر: السيّد، طلعت: القصّة القصيرة في المملكة العربيّة السّعوديّة، مطبوعات نادي الطّائف، 1988م، ص19.
- 15 رواية "روح مفقودة"، ص4.
- 16 رواية "روح مفقودة"، ص15.
- 17 رواية "روح مفقودة"، ص15.
- 18 إبراهيم، نبيلة: نقد الرواية من وجهة نظر الدّراسات اللّغويّة الحديثة، النّادي الأدبيّ، الرّياض، 1980م، ص49.
- 19 رواية "روح مفقودة"، ص27_28.
- 20 رواية "روح مفقودة"، ص20.
- 21 يونس، عبد الحميد: الأسس الفنّيّة للنّقد الأدبيّ، دار المعرفة، القاهرة، 1958م، ط1، ص110.
- 22 رواية "روح مفقودة"، ص36.
- 23 رواية "روح مفقودة"، ص82.
- 24 رواية "روح مفقودة"، ص140_141.
- 25 رواية "روح مفقودة"، ص23.
- 26 رواية "روح مفقودة"، ص102.
- 27 فيدوح، عبد القادر: شعريّة القصّ، منتديات مجلة الابتسامة، 1996م، ص47.

قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. إبراهيم، نبيلة: نقد الرواية من وجهة نظر الدّراسات اللّغويّة الحديثة، النّادي الأدبيّ، الرّياض، 1980م.
2. آل ساو، حكيم زكي: رواية "روح مفقودة"، دار بنت الرّيات للنّشر والتّوزيع - مصر، ط1، 2018م.
3. السيّد، طلعت: القصّة القصيرة في المملكة العربيّة السّعوديّة بين الرّومانسيّة والواقعيّة، مطبوعات نادي الطّائف الأدبيّ، ط1، 1408هـ/1988م.
4. فيدوح، عبد القادر: شعريّة القصّ، منتديات مجلة الابتسامة، 1996م.
5. لوكاتش، جورج: بلزاك والواقعيّة الفرنسيّة، تر. محمّد علي اليوسفي، المؤسّسة العربيّة للنّاشرين المتحدّين، ط1، 1985م.
6. مرشد، أحمد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله، المؤسّسة العربيّة - بيروت، 2005م.

7. مقيديش، سعيد: بطل الخيبة في الرواية العربيّة الحديثة "دراسة في روايات نجيب محفوظ الواقعيّة" أطروحة دكتوراة"، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس_ الجزائر، 2016م.
8. الميلادي، عبد المنعم: الشّخصيّة وسمايتها، مؤسّسة الشباب الجامعة_ الاسكندريّة، 2006م.
9. همفري: تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر. محمود الربيعي، دار المعارف_ القاهرة، 2000م.
10. يونس، عبد الحميد: الأسس الفنّيّة للنّقد الأدبيّ، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1958م.